

الأغنية الشعبية في ضوء نظرية التلقي

الدكتور: حليمي حسين

h.halimi@univ-chlef.dz

جامعة الشلف (الجزائر)

الملخص:

تعد الأغنية الشعبية من بين القصائد التي تتميز عن بقية ألوان الشعر الشعبي ، كما تعد الأغنية الشعبية تراثا تحتفي به المناطق حيث نجد بأن الأغنية الشعبية لها قراءها وشعراءها الذين يهتمون بهذا الفن الذي يعبر عن خصوصية مناطق عدة ، و سعيًا منا لاستظهار قيمة هذا التراث في الأغنية الشعبية قد أثرنا أن نطبق نظرية التلقي ومدى تفاعلها مع الأغنية الشعبية في استجلاء مكنوناتها الفنية و اللغوية لتحديد مدى التأثير و التأثير في المتلقي و بحثًا عن الخصوصيات الجمالية في الأغنية الشعبية و لأن نظرية التلقي نظرية تبحث في جمالية التأثير و التأثير بين القارئ و النص فجعلنا من الأغنية الشعبية مادة دسمة نسعى من خلالها لابرار جوانب التفاعل فيها .

الكلمات المفتاحية : التلقي — التأثير — الأغنية الشعبية

Abstract:

The folk song is among the poems that are distinguished from the rest of the colors of folk poetry, and the folk song is a heritage celebrated by the regions, where we find that the folk song has its readers and poets who are interested in this art that expresses the peculiarity of several regions, and in our endeavor to show the value of this heritage in the song Popularity We have preferred to apply the theory of reception and the extent of its interaction with the folk song in clarifying its artistic and linguistic components to determine the extent of influence and influence on the recipient and in search of the aesthetic characteristics in the folk

song, because the theory of receptivity is a theory looking at the aesthetics of influence and influence between the reader and the text. The folk song is a rich substance through which we seek to highlight the aspects of interaction in it.

عمل على تطبيقها أثناء العملية النقدية . ولكن ما يوجب الصراع ما بين المدرسة العربية أو النظريات التراثية و النظريات الغربية التي أرهصت لهذه المناهج النقدية و من بين هذه المناهج نظرية التلقي التي ظهرت مع مدرسة الكوستونس الألمانية بقيادة الناقد ياكوبس أيزر اللذان قدما معالم نظرية التلقي التي تركز على القارئ في استجلاء جمالية النص .

ركز إيزر اهتمامه على القارئ الفرد، وعلى كيفية أن يكون للنص معنى لدى القارئ، "المعنى بوصفه نتيجة للتفاعل بين النص والقارئ أي بوصفه أثراً Trace يمكن ممارسته، وليس موضوعاً يمكن تحديده"². أي أنه أراد أن يبرز علاقة التأثير و التأثير الموجودة بين النص و القارئ و منه فالعمل الأدبي ليس نصاً تآمماً، وليس ذاتية القارئ تآمماً، ولكنه يشملهما مجتمعين، ولكي يصف إيزر التفاعل بين النص والقارئ، يقدم مفهوم «القارئ الضمني» ضمن كتاب يحمل هذا الاسم، وعرفه بقوله: «إنَّ المصطلح يدمج كلاً من عملية تشييد النص للمعنى المحتمل، وتحقيق هذا المعنى المحتمل من خلال عملية القراءة... إنَّ جذور القارئ الضمني مغروسة بصورة راسخة في بنية النص... إنَّه بنية نصية، تتطلع إلى حضور متلق

التلقي و التأثير:

يقودونا الحديث عن نظرية التلقي للإستنباط جملة من المفاهيم ذات البعد الدلالي نظراً لارتباط المصطلح بالترجمة كما أن توظيف مصطلح التلقي يختلف من دارس إلى آخر حيث عدم الاتفاق على ترجمة واحدة يؤدي إلى فرض هيمنة أيديولوجية معينة نابعة من التشبع الفكري و الثقافي .

أما فيما يخص المضمون، فهذه الكثرة تبدو أنها تؤثر على القضية أو المفهوم بحيث "إن مثل هذه الإشكالية تصدم كل من يحاول البحث في هذه النظرية، وتسبب كثيراً من اللبس، لأن كل مرجع يستخدم مصطلحاً يختلف عن الآخر، وتعدد المصطلحات المعبرة عن النظريات المتجهة نحو القارئ في العربية، لتصل إلى ستة مصطلحات تقريباً وهي: تلقي، استقبال، نقد الاستجابة، القراءة، التقبل، تأثير"¹. "في ظل تعدد المناهج النقدية المعاصرة التي تتناول الأعمال الأدبية من وجهة التحليل و النقد، فكل منهج يختلف عن الآخر نظراً لمرجعياته الفكرية التي انبثقت عليها و انبثقت منها معايير النقد أو التحليل، فلذا وجب على الناقد أو المحلل عند تناوله للعمل الأدبي مراعاة هذه المرجعيات و

ما³. نفهم من هذا القول بأن القارئ الضمني هو بنية متجذرة في النص و هي أحد المفاتيح التي يستخدمها القارئ للولوج إلى مغاليق هذا النص .

وعليه ، لم يهتم إيزر بما هو موجود وإنما بما يمكن أن يتكون ، أي بتشكيل النص في ذهن القارئ الذي يسهم في بناء معناه ، ولذلك فللأدب بالنسبة إليه قسمان ، قسم الفني وهو النص كما أخرجه المؤلف ، والقسم الثاني جمالي وهو الإنتاج الذي ينتجه القارئ. وهذا يعني أن الإنتاج الأدبي لا يتطابق مع النص الأصلي ولا مع القراءة ، وإنما هو الأثر الذي يحدث نتيجة تفاعل القارئ مع ما يقرأه ، ومن ثم لا ينبغي البحث في النص عن معنى مخفي ، وإنما ينبغي استطلاع ما يعتمل في نفس القارئ عندما يقرأ. وهو إذ يقرأ فإنما يقرأ على هدي من النص ،

يتضح من خلال المفاهيم والفرضيات التي اعتمدها إيزر في نظرية التلقي ، أنه يشدد على أهمية التلقي في تحديد الموضوع الجمالي ، حيث اعتبر النص بمعزل عن المتلقي ؛ وعن ردود فعله لا ينتج عنه شيء وبقي عملاً جامداً ، يحتاج إلى فعل يتحقق به ويخرج به إلى الوجود ؛ ولا يتأتى ذلك إلا بعنصر القراءة. وهذا ما يشير إليه إيزر في قوله الآتي: "عن الشيء الأساسي في قراءة كل عمل أدبي هو التفاعل بين بنيته ومتلقيه ، لهذا السبب نبهت نظرية الفينومينولوجيا بالباح إلى أن دراسة العمل الأدبي يجب أن تهتم ، ليس فقط بالنص الفعلي بل كذلك وبنفس الدرجة بالأفعال المرتبطة

بالتجارب مع ذلك النص. فالنص ذاته لا يقدم إلا "مظاهر خطاطية" يمكن من خلالها أن ينتج الموضوع الجمالي للنص بينما يحدث الإنتاج "الفعلي" من خلال فعل التحقق. ومن هنا يمكن أن نستخلص أن للعمل الأدبي قطبين ، قد نسميهما: القطب الفني والقطب الجمالي ، الأول هو نص المؤلف ، والثاني هو التحقق الذي ينجزه القارئ. وفي ضوء هذا التقاطع يتضح أن العمل ذاته لا يمكن أن يكون مطابقاً لا للنص ولا لتحقيقه بل لابد أن يكون واقعاً في مكان ما بينهما"⁴.

ونشرح كلام إيزر بما أشار إليه الباحث حبيب موني في قوله: «ثلاثة نصوص تتمظهر من خلال عملية التواصل الجمالي ، يحتل فيها نص المؤلف مكان "العلامة الدالة" ، ونص القارئ مكان "التحقيق الجمالي" لها. أما قيمة العمل الأدبي فتموقع بينهما مادام العمل ذاته ، هو نتيجة تحقيق التفاعل بين القطبين ، أو النصين ، فلا يمكن اختزاله في واقع النص ، ولا في ذاتية القارئ»⁵.

إن النص وحده بعيداً عن المتلقي ؛ وعن ردود فعله بفهم إيزر لا ينتج عنه شيء ويظل عملاً جامداً ، يبقى في حاجة إلى فعل يتحقق به ويخرج إلى الوجود ؛ ولا يتأتى ذلك إلا بعنصر القراءة. ونستطيع .من خلال نص إيزر .أن نميز بين بنيتين اثنتين: هما بنية النص وبنية الفعل ، وأن العلاقة بينهما هي علاقة لزومية ، إذ الحديث عن جمالية النص قرين بفعل القراءة التي تصدر عن المتلقي و عملية التجاذب التي

الأغنية الشعبية في ضوء نظرية التلقي

سبيل المثال المتنبي وزهير بن أبي سلمى وغيره من الشعراء الذين عُرفوا بتنقيحهم للشعر، ولعل هذا ما جعل الشعراء يبحثون عن الذوق الذي سيتذوقه القارئ و عن أي تأثير سيكون من خلال تلقي هذه الأشعار. فالفصيح من الشعر يحيلنا إلى الحديث عن التراث الشعبي ومدى تفاعله مع نظرية التلقي ذات المنشأ الغربي وإن اسقاط التراث الشعري على النظرية وتجاوبه معه من خلال خاصية التأثير يقودنا للحديث عن الأغنية الشعبية ومدى تفاعلها مع نظرية التلقي

مفهوم الأغنية الشعبية :

لقد تعددت مفاهيم الأغنية الشعبية فهي في ظاهر مقطوعة موسيقية ذات ألحان "فالأغنية العامة من الناس في أزمنة ماضية وبقيت متداولة أزماناً طويلة ، الشعبية لها خصوصيتها التي تميزها عن بقية ألوان الشعر الشعبي ، لأنها ال تعتمد على الفردية بل هي جماعية الأداء كما أنها تعبر عن مشاعر العامة ال عن مشاعر مغنيها فحسب ، كما أن الأغنية الشعبية في الغالب هي نتيجة جهد جماعي وصالحة أكثر من زمان ومكان مما يمنحها الديمومة كما أنها لي ملك الشاعر⁷ فهذا مفهوم يقودنا لاستقراء جملة من المعايير تمر عليها الأغنية الشعبية حيث أنها تصدر من الشعب و إلى الشعب و كأنها مجهولة النسب و الهوية . وكان للأدب العالمي مفهومها ورأي في ذلك حيث يقول الألماني: "هردر"

تحدث بينهما وما يصاحب ذلك من تجارب وتفاعل. وهكذا يكون. فعل القراءة منطلقاً من الذات نابعاً منها، وأن النص يثير قارئيه ويوجههم لبناء معناه وهذا يدل على أن الذاتية عنصر أساسي في هذا البناء، وكذا في تحقيق جماليته وتعيينها، بمعنى أن تحديد ما هو موضوعي يمر من خلال ما هو ذاتي..

إن دراسة النص بوصفه شيئاً موضوعياً يفترض إمكانية وصفه بوفاء تام دونما تدخل من ذات القارئ أو المؤول، حيث لا يتم الوفاء التام للنص إلا على حساب اغفال القارئ بصورة تامة، فأني تهاون في الوفاء للنص إنهما يقود حتماً إلى محذور شدد عليه النقاد الجدد بوصفه خطأ في التقويم والتأويل، وهو ما عُرف بالمغالطة التأثيرية، أي الخلط بين ما هو للنص وما هو من نتائجه وتأثيراته في القارئ، وهي التأثيرات التي كانت نظرية التلقي تجادل بأن فهم النص غير ممكن بمعزل عن هذه التأثيرات⁶ ما يمكن أن نستقيه من هذا القول هناك علاقة تأثيرية ما بين النص و القارئ فهي علاقة ذات قوة مغناطيسية لا يمكن التحكم فيها. غير أراء أن النقاد الجدد عدّوا تدخل هذه التأثيرات في تحليل النص من الأخطاء الوارد الوقوع فيه ولتجنبه يلزمنا نقد موضوعي.

وهذا ما يحيلنا إلى أن التراث كان حافلاً بهذه النظرية ووضع القيمة للقارئ هو أننا نجد من الشعراء من كان ينقح أشعاره ويجودها وهذا اعتباراً لها سيؤول إليه أثناء القراءة ونذكر على

في إنشائه معدوم ، و لأن العامة اصطاحوا على أن ينكروا على خالق الفرد حقه في أن ينسب إلى نفسه ما يدع بل لأن العمل الأدبي الشعبي يستوفي أثرا فنيا يتوافق الجماعة و جريا على عرفهم من حيث موضوعه و شكله ، و لأنه لا يتخذ شكله النهائي قبلها يصل جمهوره شأن الأدب المدون و أدب الفصحى ، بل يتم الشكل الأخير من خلال الاستعمال و التداول¹⁰

ما يمكن أن نستقيه من خلال هذا القول بأن الأغنية الشعبية لا يمكن أن تستقيم جمالياتها لا شكلها إلى من خلال جمهورها و هذا ما بنى عليه نظرية التلقي في مفهومها من خلال التفاعل بين القارئ و النص و درجة الإنصهار بينهما .

حيث "يعتبر الشعر أقدم اللغات البدائية⁸ فهذا تعبير منه على أن الأغنية الشعبية هي شعر بدائي فهي تتميز بالخصوصية التي تتميز بها القصيدة الشعرية .

كما يحدد ألكسندر هجرتي كراب مفهومها أورا للأغنية الشعبية بأنها "قصيدة شعرية ملحنة مجهولة المؤلف ، كانت تشيع بين الأميين في الأزمنة الماضية ، و ما تزال حية في الاستعمال"⁹. وهو كذلك ينفي أن يكون للأغنية الشعبية مؤلف معلوم فهذا يحيلنا أن مؤلفها هو قارئها و درجة تفاعله معها . و يقودنا هذا للحديث عن مدى تفاعل الأغنية الشعبية مع قارئها وهذا في ضوء نظرية التلقي و استجلاء لمكان الجمال فيها باعتبارها أدبا أذ يقول أحمد راشدي "إن العمل الأدبي مجهول المؤلف لا لأن دور الفرد

⁶ ينظر :نادر كاظم: المقامات والتلقي. ص25.

⁷ موسى أحمد ، تراث الموسيقى الشعبية الفلسطينية ، مجلة جامعة النجاح الوطنية لأبحاث العلوم الإنسانية (المجلد 21 (3) 2331 ، ص331.

⁸ — ليلي روزلين قريش ، القصة الشعبية ذات الأصل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 3893 . ص 31

⁹ ألكسندر هجرتي كراب ، علم الفلكلور ، ترجمة أحمد رشدي صالح ، وزارة الثقافة المصرية ، مؤسسة التأليف و النشر ، دار الكتاب ، القاهرة ، 3817، ص211.

¹⁰ أحمد صالح رشدي ، الأدب الشعبي ، ط1 ، دار المعارف ، مصر ، ص31-23

¹ فاطمة البريكي ، قضية التلقي في النقد العربي القديم ، ص 44.

² نظرية التلقي ، روبرت هولب : تر: عز الدين إسماعيل ، النادي الأدبي والثقافي بجدة ، 1994 ، ص202. المرجع نفسه ، ص204-205³.

فعل القراءة ، نظرية جمالية التجاوب ، فولفغانغ إيزر: تر: حميد الحميداني والجلالي الكدية ، منشورات مكتبة المناهل ، ص124

⁵ في القراءة والتأويل ، حبيب مونسي: مجلة الموقف الأدبي ، أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، العدد440 ، كانون الأول ، السنة السابعة والثلاثون 2007 ، ص60